الفصل الأول

مفهومات

وفيه :

- المبحث الأول - مفهوم العبادة.
- المبحث الثاني - مفهوم الكائنات.

obeikandl.com

obeikandl.com

المبحث الأول
مفهوم العبودية

قبل أن نشرع في بسط الكلام عن عبودية الكائنات يلزمنا أن نبين ماتعنيه كلمة «عبودية» حتى يتضح المقام، مستعينين برب العباد على ذلك.

١ ـ كلمة «عبودية» في اللغة:

يقول ابن منظور [١] رحمه الله تعالى .

«عبد»: «العبد»: الإنسان حراً كان أو رقيقاً. يذهب بذلك إلى أنه مربوب لباريه عز وجل.

ويقال : فلان «عبد» بين العبودة والعبودية والعبدية .

وأصل العبودية: الخضوع والتذلل .

ويقال للمسلمين: عباد الله، يعبدون الله .

والتعبد: التنسُّك . والعبادة في اللغة: الطاعة مع الخضوع .

وفلان عابد: وهو الخاضع لربه المستسلم المنقاد لأمره[٢].

وذكر الرازي[٣] في مادة «عبد» أن «العبد»: ضد الحر، وجمعه عبيد، وعباد.

وتقول : عبد بين العبودة والعبودية .

---

(١) هو: محمد بن مكرم بن علي بن أحمد الأنصاري الأفريقي ثم المصري، ولد سنة ٦٣٠هـ ، وتوفي سنة ٧١١هـ، صاحب كتاب لسان العرب. [بغية الوعاة للسيوطي: ١/ ٢٤٨] .

(٢) لسان العرب لابن منظور: ٢/ ٦٦٤ .

(٣) هو: محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، هبط مصر ودخل الشام ثم رحل عنها إلى قونية وكان بها سنة ٦٦٦هـ . توفي بعد سنة ٦٩١هـ، وترك مؤلفات منها: مختار الصحاح في اللغة وأسئلة القرآن وأجوبتها في التفسير. [من مقدمة نسخة مختار الصحاح سنة ١٣٦٩هـ/ سنة ١٩٥٠م مطبعة مصطفى البابي بمصر] .

وأصل العبودية : الخضوع والتذلل .

و« التعبيد » : التذليل .

يقال : طريق « مُعَبَّد » .

والعبادة : الطاعة، و « التَّعَبُّد » التنسُّك[١] .

وفي تاج العروس : « العبدون » جمع « عبد » واعتبر فيه معنى الوصفية التي هي الأصل .

وقال بعض أئمة الاشتقاق : أصل العبودية : الذُّل والخضوع .

وقال آخرون : « العبودية : الرضا بما يفعل الرب، والعبادة : فعل ما يرضى به الرب »[٢] .

وفي المصباح[٣] : « عَبَدتُ اللهَ » : (أعبده ـ عبادة) وهي : الانقياد والخضوع، والفاعل (عَابِد) والجمع (عُبَّاد) و (تعبدته) : دَعوتُهُ إلى الطاعة .

وذكر ابن فارس[٤] – رحمه الله تعالى – : العبد : خلاف الحر .

وأصله : من الخضوع والذل .

يقال : طريق معبد . والعبادة : الطاعة .

وعبدتُ فلاناً : اتخذته عبداً . والبعير المعبَّد : المذَلَّل[٥] .

وقيل : « العبادة » : الطاعة والخضوع[٦] .

وقيل : معناها الخضوع والتذلل . أي : استسلام المرء وانقياده لأحدٍ غيره انقياداً لا مقاومة معه ولا عدول عنه ولا عصيان، وحتى يستخدمه هو حسب ما

---

(١) مختار الصحاح لفخر الدين الرازي : ص ٤٠٧ .

(٢) تاج العروس لمحمد مرتضي الزبيدي : ٢ / ٤٠٩ .

(٣) المصباح المنير لأحمد بن علي الفيومي : ١ / ٣٨٩ .

(٤) هو : أحمد بن فارس بن زكريا بن محمد بن حبيب القزويني الرازي، كان عالماً لغوياً، تُوفِّيَ سنة٣٩٥هـ ، [من كتاب مجمل اللغة ـ تحقيق : هادي حسن حمودي] .

(٥) مجمل اللغة لابن فارس : ٣ / ٤٣٥ .

(٦) كمال الإعلام بتثليث الكلام لمحمد بن مالك : ٢ / ٤٠٣ .

يرضى وكيفما يشاء . ومن هذا الأصل اللغوي نشأت في مادة هذه الكلمة معاني العبودية والإطاعة التأله والخدمة والقيد والمنع(١) .

وقيل : العبودية والعبادة هي الطاعة (٢).

فمما تقدم نلحظ أن بعض التعريفات السابقة اهتم واضعوها بعبودية الإنس فقط أو الإنس والجن معاً حيث هم دون غيرهم المكلَّفون – على رأي الجمهور – فلم يراعوا في التعريف عبودية الكائنات الأخرى، وهو مايهمنا في موضوع بحثنا . ولكن من التعريفات السابقة نستطيع أن نجد معنىً عاماً لعبودية الكائنات كلها. فهو لا يخرج عن «الخضوع والانقياد والطاعة لله تعالى». سواء أكان بالاختيار أم بالتسخير، وهذه المعاني الثلاث تشترك فيها الكائنات كلها .

(٢) وأما حقيقة العبودية في الشرع:

فترتبط ارتباطاً وثيقاً بكلمة «العبادة» وإن ذكر بينهما فرق، فقيل: العبودية: الرضا بما يفعل الرب، والعبادة : فعل ما يرضى به الرب .

وقيل: إن الذي يسقط عن الإنسان يوم القيامة هو العبادة لا العبودية لأن العبودية أن لا يرى مُتَصَرِّفاً في الدارين إلا الله تعالى(٣).

وقيل: العبادة: هو فعل المكلَّف على خلاف هوى نفسه تعظيماً لربه.

والعبودية: الوفاء بالعهود، وحفظ الحدود، والرضا بالموجود، والصبر على المفقود(٤).

وبالبحث عن حدٍّ شرعي للعبودية، نجد أن معظم من تكلم عنها يتكلم عنها بإحالتها إلى تعريف العبادة، فكأنها والعبادة شيءٌ واحد أو مترادفان.

---

(١) المصطلحات الأربعة لأبي الأعلى المودودي: ٩٥ .
(٢) القاموس المحيط للفيروزأبادي: ١/ ٣٢٢ .
(٣) تاج العروس: ٢/ ٤٠٩ .
(٤) التعريفات للجرجاني: ص ١٢٧ .

وقد أوضح شيخ الإسلام ابن تيمية[١] – رحمه الله تعالى – أن هناك مرادفات أخرى لكلمة «العبودية» فقال: «والعبادة والطاعة والاستقامة ولزوم الصراط المستقيم ونحو ذلك من الأسماء: مقصودها واحد»[٢].

وقال ابن القيم[٣] – **رحمه الله تعالى** –: «العبودية اسم جامع لمراتب أربع من قول اللسان والقلب وعمل القلب والجوارح. فقول القلب: هو اعتقاد ما أخبر الله سبحانه به عن نفسه وعن أسمائه وصفاته وأفعاله وملائكته على لسان رسله عليهم السلام. وقول اللسان: إخبار عن قول القلب بما فيه من الاعتقاد والدعوة إليه والذب عنه وتبين بطلان البدع المخالفة والقيام بذكره وتبليغ أوامره.

وعمل القلب: كالمحبة له والتوكل عليه والإنابة إليه والخوف منه والرجاء له وإخلاص الدين له والصبر على أوامره وعن نواهيه وعلى أقداره، والمعاداة فيه والخضوع والذل له، وغير ذلك من أعمال القلب.

وأعمال الجوارح: كالصلاة والحج والجهاد وغيرها[٤].

كما ذكر – رحمه الله تعالى – مرادفات «للعبودية» فقال: «أوصى الله تعالى نبيه محمداً ﷺ أن يتبع ملة إبراهيم عليه السلام، وكان يُعلِّم أصحابه إذا أصبحوا أن يقولوا: «**أصبحنا على فطرة الإسلام وكلمة الإخلاص ودين نبينا محمد ﷺ، وملة أبينا إبراهيم عليه السلام حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين**»[٥].

---

(١) هو: أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام أبو العباس تقي الدين بن تيمية ولد سنة ٦٦١هـ، آية في التفسير، فصيح اللسان له مؤلفات تبلغ ثلاث مائة مجلد، توفي سنة ٧٢٨هـ [الأعلام للزركلي: ١/١٤٤].

(٢) العبودية لابن تيمية: ص٢٩.

(٣) هو: محمد بن أبي بكر الدمشقي، ولد سنة ٦٩١هـ، وتوفي سنة ٧٥١هـ، تتلمذ على شيخ الإسلام ابن تيمية، أغرى بحب الكتب فجمع منها عدداً عظيماً، وكتب بخطه الحسن شيئاً كثيراً [الأعلام للزركلي: ٦/٥٦].

(٤) مدارج السالكين لابن قيم الجوزية: ١/١٠٠.

(٥) نص حديث رواه أحمد في مسنده: ٣/٤٠٦، ٤٠٧.

فملة أبينا إبراهيم عليه السلام: التوحيد. ودين محمد عليه الصلاة والسلام: ماجاء به من عند الله قولاً وعملاً واعتقاداً.

وكلمة الإخلاص هي: شهادة أن لا إله إلا الله.

وفطرة الإسلام هي ما فطر الله عليه عباده من محبته وعبادته لا شريك له والاستسلام له عبودية وذلاً وانقياداً وإنابة»[١] اهـ.

والمقصود من «فطرة الإسلام»: هي ما خلق الله تعالى عباده عليه من عبادته وحده سبحانه والاستسلام والخضوع له، ولكن الشياطين قد أثرت على تلك الفطرة فحولتها من حال العبودية لله عز وجل إلى حال عَبَدَ فيه البشرُ آلهةً معه سبحانه أو غيره.

وقد أشار الحديث الصحيح إلى ذلك بقوله عليه الصلاة والسلام مخبراً عن رب العزة: «**وإني خلقتُ عبادي حُنفاء كلهم وإنهم أتتهم الشياطينُ فاجْتَالَتْهُم عن دينهم**»[٢].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى -: «والتوحيد الذي جاء به الرسل إنما تضمن إثبات الألوهية لله وحده بأن يشهد أن لا إله إلا هو ولا يعبد إلا إياه ولا يتوكل إلا عليه ولا يوالي إلا له، ولا يعادي إلا فيه ولا يعمل إلا من أجله»[٣] اهـ.

ويقول ابن أبي العز[٤] **- رحمه الله تعالى -**: «وتوحيد الألوهية يقال له: توحيد العبادة لأن المألوه معناه المعبود. بل التوحيد الذي دعت إليه الرسل ونزلت

---

(١) مدارج السالكين لابن قيم الجوزية: ٣/ ٤٨١.

(٢) مسلم: ٤/ ٢١٩٧ – ك: الجنة ـ ب: فى أهل الجنة وأهل النار وعلاماتهم فى الدنيا.

(٣) درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية: ١/ ٢٢٤.

(٤) هو: العلامة صدر الدين علي بن علاء الدين بن محمد بن أبى العز الحنفي الأذرعي، ولد سنة ٧٣١هـ، اشتغل بالعلوم وكان ماهراً فى دروسه وفتاويه، توفي سنة ٧٩٢هـ. [شذرات الذهب: ٦/ ٣٢٦].

به الكتب هو: توحيد الألوهية المتضمن توحيد الربوبية وهو عبادة الله وحده لا شريك له. فحقيقة هذا التوحيد: أن يعبد الله وحده لا يشرك بعبادته أحد أو شيء من خلقه سواء في الأفعال أو الأقوال»[١] اهـ.

والعبودية هي الدين؛ فالدين كله داخل في العبادة. فثبت في الصحيح أن جبريل عليه السلام لما جاء إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم في صورة أعرابي وسأله عن الإسلام والإيمان والإحسان.

قال في آخر الحديث: «**هذا جبريل جاء يعلمكم دينكم**»[٢].

والدين يتضمن معنى الخضوع والذل، يقال: دنته فدان أي: أذللته فذل. ويقال: يدين الله ويدين لله أي: يعبد الله ويطيعه ويخضع له.

والعبادة أصل معناها: الذل أيضاً[٣].

وعليه فإن أكمل العِبَادِ عبودية أتمهم لله تعالى ذلاً وخضوعًا.

يقول ابن القيم - رحمه الله تعالى -: «إن تمام العبودية يكون بتكميل مقام الذل والانقياد. وأكمل الخلق عبودية أكملهم ذلاً لله وانقياداً وطاعة، والعبد ذليل لمولاه الحق بكل وجه من وجوه الذل فهو ذليل لعزه وذليل لقهره وذليل لربوبيته فيه وتصرفه وذليل لإحسانه إليه وإنعامه عليه»[٤].

فيتضح مما سبق أن «العبودية» هي توحيد الألوهية، وهي توحيد العبادة، وهي التوحيد الذي جاءت به الرسل، وهي فطرة الإسلام، وهي ملة أبينا إبراهيم عليه السلام، وهي دين نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وهي كلمة الإخلاص، وهي الحنيفية السمحة، وهي الطاعة والاستقامة، وهي الصراط المستقيم.

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية: ص٧٩.

(٢) متفق عليه: البخاري: ك: الإيمان - ب: سؤال جبريل النبي عليه الصلاة والسلام عن الإسلام والإيمان، مسلم: ٣٦/١- ك: الإيمان ـ ب: بيان الإسلام والإيمان والإحسان.

(٣) العبودية: ص ٨، ٩.

(٤) مفتاح دار السعادة لابن القيم: ١/ ٢٨٩.

هذا ما يظهر من المعنى الشرعي لمدلول كلمة «العبودية».

وإذا تأملنا فيما دلت عليه من المعنى اللغوي المتقدم فإننا نجد أنها لا تخرج عن هذه المعاني الآتية:

الخضوع والذل والإطاعة والاستسلام والانقياد. ومن ثم نستطيع أن نتوصل إلى حد شرعي لمعنى «العبودية» وهو: الخضوع والمحبة لله عز وجل بإفراده سبحانه بالعبادة بما شرع.

وقلنا: «الخضوع والمحبة لله» لأنهما أصلان رئيسان في عبودية الله تعالى.

وعلى هذا التعريف فإنه تشترك فيه الكائنات كلها في خضوعها له سبحانه وتعالى، وتوحيدها وإفرادها له عز وجل، قائمة بأعمال تعبدية سواء ظاهرية أم باطنية.

وللوصول إلى هذه العبودية يجب علينا أن نحقق العبادة التي شرعها الله تعالى لنا من أوامره ونواهيه، وأن تكون خالصة لله سبحانه دون سواه.

فالعبودية وصف قائم بالعبد، فإنهم يقولون: رجل عبد[1]. فهي صفة وفي أعلى مراتب المدح للمرء، وكلما ازداد المرء قربًا إلى الله تعالى وتحققًا من اتباع شرعه سبحانه وعبادته حق العبادة، كانت درجته من العبودية بقدر ذلك. فالناس يتفاوتون في وصف العبودية تفاوتًا كبيرًا، وإن وصفوا بها جميعًا، فقد مدح الله عز وجل نبيه أيوب عليه السلام بهذا الوصف بقوله تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾ [ص: ٤٤].

وكذلك أيضًا وصفه سبحانه ومدحه لسليمان عليه السلام بقوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾﴾ [ص: ٣٠]. فعبودية هذين النبيين وغيرهما من الأنبياء ليست كغيرهم من بقية البشر.

---

(١) تاج العروس: ٢/ ٤٠٩.

يقول الإمام ابن تيمية - رحمه الله تعالى - : « والناس في هذا على درجات مفاوتة لا يحصي طرفيها إلا الله، فأكمل الخلق وأفضلهم وأعلاهم وأقربهم إلى الله وأقواهم وأهداهم أتمهم عبودية لله »(١) اهـ.

ومن سَوَّى بين هؤلاء الأنبياء في عبوديتهم لله تعالى وبين غيرهم من بقية البشر، فقد بَعُدَ عن الصواب وقال بقول المرجئة(٢)، بأن الإيمان لا يتبعض ولايتفاضل أَهْلُهُ فيه، فَسَوّوا بين إيمان الملائكة وإيمان أبي بكر الصديق وإيمان عوام المسلمين.

(٣) كلمة «العبادة» في الشرع:

فهي: الأعمال الصالحة الإرادية التي تؤدى لله تعالى ويفرد بها .

وقولنا: «الأعمال» تشمل جميع الأعمال من العبادات الظاهرة كالصلاة والحج والجهاد والسجود وغيرها، والعبادات الباطنة كالتوكل والاستعانة والإنابة والنية، والعبادات القولية كالذكر والتسبيح وقراءة القرآن وغيرها.

وقولنا : «الصالحة» نعنى بذلك أن يكون لها أصل في مشروعيتها من الكتاب والسنة الصحيحة.

وقولنا: «الإرادية» أي: تقع باختيار العبد فيثاب على فعلها ويعاقب على تركها.

---

(١) العبودية: ص٥٥ .

(٢) المرجئة : الإرجاء على معنيين: أحدهما: بمعنى التأخير، كما فى قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ [الأعراف: ١١١] أي: أمهله. والثاني: إعطاء الرجاء . فأما إطلاق اسم المرجئة على الجماعة بالمعنى الأول فصحيح ، لأنهم كانوا يؤخرون العمل عن النية والقصد . وأما بالمعنى الثاني فظاهر، فإنهم كانوا يقولون: لايضر مع الإيمان معصية كما لا ينفع مع الكفر طاعة. وقيل : الإرجاء: تأخير حكم صاحب الكبيرة إلى يوم القيامة فلا يُقضَى له بحكم ما فى الدنيا من كونه من أهل الجنة أو من أهل النار. فعلى هذا : فالمرجئة والخوارج فرقتان متقابلتان، وقيل الإرجاء: تأخير علي ﷺ عن الدرجة الأولى إلى الرابعة فعلى هذا: فالمرجئة والشيعة فرقتان متقابلتان، وهم فرق كثيرة. [الملل والنحل للشهرستاني: ١/ ١٣٩] ، [مقالات الإسلاميين: ص١٣٢، والفرق بين الفرق: ص ٢٠٢] .

وأما قولنا: «لله تعالى» ليتم بذلك الإخلاص في العبادة بإفراده سبحانه.

وقولنا: «يفرد بها» ليتم بذلك التوحيد الكامل في الألوهية والربوبية.

فالأعمال تحتاج إلى ركيزتين هما:

(١) الإخلاص فيها. (٢) أن تكون صوابا.

يقول الإمام ابن تيمية - رحمه الله تعالى -: «والعبادة لها أصلان:

أحدهما: أن لا يُعْبَد إلا الله.

والثاني: أن لا يُعْبد إلا بما أمر وشرع، لا يُعْبد بغير ذلك من الأهواء والظنون والبدع، قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا (١١٠)﴾ [الكهف: ١١٠].

فالعمل الصالح، هو ما أمر به أمر إيجاب أو استحباب، فما كان من البدع في الدين التي ليست في الكتاب ولا في السُّنَّة الصحيحة فإنها وإن قالها من قالها وعَمِلَ بها من عَمِلَ بها ليست من العمل الصالح.

وأما قوله تعالى: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ فهو إخلاص الدين لله وحده سبحانه، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه [١] يقول: «اللهم اجعل عملي كله صالحًا واجعله لوجهك خالصًا ولا تجعل لأحد فيه شيئًا».

وقال الفضيل بن عياض[٢] - رحمه الله تعالى - في قوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٣]: أَخْلَصُه وأَصْوَبُه.

---

(١) هو: أبو حفص العدوي الفاروق الصادق المحدث الملهم، القرشي العدوي، أمير المؤمنين، ولي الخلافة بعد أبي بكر الصديق، استشهد في ذي الحجة سنة ٢٣هـ [تذكرة الحفاظ: ١/٥]، [تقريب التهذيب: ٢/٥٤].

(٢) هو: الفضيل بن عياض بن مسعود التميمي، أبو علي، الزاهد المشهور، أصله من خراسان وسكن مكة، ثقة عابد إمام، كان كثير الحديث، توفي سنة ١٨٧هـ. [تذكرة الحفاظ: ١/٢٤٥]، [تقريب التهذيب: ٢/١١٣].

قالوا: يا أبا علي .. ما أخلصه وما أصوبه ؟ .

قال: إن العمل إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يُقبل، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يُقبل، حتى يكون خالصًا صوابًا. والخالص ما كان لله تعالى، والصواب أن يكون على السُّنَّة» اهـ[١].

وقد عرَّف ابن تيمية - رحمه الله تعالى - «العبادة» بأنها: «اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة، فالصلاة والزكاة والصيام والحج وصدق الحديث وأداء الأمانة وبر الوالدين والوفاء بالعهود والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأمثال ذلك من العبادة»[٢].

ويقول الشيخ محمد رشيد رضا[٣] - رحمه الله تعالى -: «تدل الأساليب الصحيحة والاستعمال العربي الصَّحيح على أن العبادة ضَرْبٌ من الخضوع بالغ حَدَّ النهاية، ناشئ عن استشعار القلب عظمة للمعبود لا يعرف منشأها، واعتقاده بسُلطة له لا يُدرك كنهها وما هيتها. وقصارى ما يعرفه منها أنها محيطة به ولكنها فوق إدراكه»[٤] اهـ .

وقيل: إن العبادة لها معنيان عام وخاص .

فالعبادة بالمعنى العام هي: «عمل العبد الإرادي الموافق لطلب المعبود».

وأما العبادة بالمعنى الخاص فهي: «الأعمال الخاصة المحددة التي كُلِّف العبدُ بالقيام بها تمرينًا عمليًا له على الخضوع الكامل» .. وهي ما يعبر عنه بالشعائر التعبدية[٥] .

---

(١) العبودية: ص ٢٩، ٣٠ .

(٢) العبودية: ص ٥، ٦ .

(٣) هو: محمد رشيد بن علي بن رضا شمس الدين القلموني البغدادي الأصل. صاحب مجلة «المنار» ولد سنة ١٢٨٢هـ بمدينة قلمون بطرابلس الشام ثم رحل إلى مصر ولازم الشيخ محمد عبده وتتلمذ عليه، عالم بالتفسير والتاريخ والأدب له كتب أشهرها تفسير القرآن ولم يكمله، توفى سنة ١٣٥٤هـ .

(٤) تفسير المنار لمحمد رشيد رضا: ١/ ٥٦، ٥٧ .

(٥) العبادة للدكتور محمد أبو الفتح البيانوني: ص ١٦ - ١٨ .

وقيل هي: فعل ما يرضى به الرب[١].

وهذا التعريف الأخير يشمل عبادة الكائنات كلها وهو المقصود من بحثنا. أما التعريفات السابقة فقد عُنِيَتْ بصفة خاصة بعبادة البشر.

(٤) استعمال القرآن لكلمة «العبادة»:

وأما عن استعمال القرآن الكريم لكلمة «العبادة» فقد ذكر الأستاذ أبو الأعلى المودودي[٢] – رحمه الله تعالى – بعد تحليله للاشتقاق اللغوي لمادة «عبد» وأنَّ لها معان مختلفة، فقال ما ملخصه:

[١] العبد: المملوك خلاف الحر.

[٢] العبادة: الطاعة مع الخضوع.

[٣] عبده عبادة: تأله له، والتعبد: التنسك.

[٤] عبد به: لزمه فلم يفارقه.

[٥] ما عبدك عني: ما حبسك عني.

ثم قال: «و إذا رجعنا إلى القرآن الكريم رأينا أن كلمة «العبادة» قد وردت فيه غالبًا في المعاني الثلاثة الأولى، ففى بعض المواضع قد أريد بها:

[١] المعنيان الأول والثاني معًا ـ يريد معنى العبودية والإطاعة.

[٢] وفي الأخرى: المعنى الثاني وحده، أي: الإطاعة.

[٣] وفي الثالثة: المعنى الثالث فحسب أي: التأله.

---

(١) تاج العروس: ٢/ ٤٠٩.

(٢) هو: أبو الأعلى المودودي، ولد سنة ١٩٠٣م بمدينة أورنك أباد بالباكستان، كان صحفياً، دافع عن مصالح وحقوق المسلمين ورد افتراءات غاندي على الإسلام وهاجم الغزو الفكري وواجه القاديانية، وأسس الجماعة الإسلامية في لاهور سنة ١٩٤١م، وكان عالمًا جليلاً وله مؤلفات كثيرة ترجم كثير منها إلى العربية. توفى سنة ١٩٧٩م [من مجلة المجتمع: العدد رقم ٤٥٦ بتاريخ ٢٣ أكتوبر سنة ١٩٧٩م].

كما قد استعملت في مواضع أخرى بمعانيها الثلاثة في آن واحد. ثم أورد الأمثلة على كل موضع. فذكر – رحمه الله تعالى – :

(١) أن الموضع الأول : وهو معنى العبودية والإطاعة :

في مثل قوله تعالى : ﴿ **فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ (٤٧)** ﴾ [المؤمنون :٤٧].

وقوله تعالى : ﴿ **وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ (٢٢)** ﴾ [الشعراء :٢٢].

فالمراد بالعبادة في كلتا الآيتين هو العبودية والإطاعة، فقال فرعون : إن قوم موسى وهارون عابدون لنا أي عبيد لنا وخاضعون لأمرنا.

وقال موسى عليه السلام : ﴿ **أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ** ﴾ ، أي : اتخذتهم عبيداً تستخدمهم حسبما تشاء.

(٢) وفي الموضع الثاني : أريد بها المعنى الثاني فحسب وهو الطاعة :

في مثل قوله تعالى : ﴿ **أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٦٠)** ﴾ [يس :٦٠] .

والظاهر أنه لا يتأله أحد الشيطان في هذه الدنيا بل الكُلُّ يلعنه ويطرده من نفسه لذلك فإن الجريمة التي يُعاقبُ بها الله تعالى بني آدم يوم القيامة ليست تألههم للشيطان في الحياة الدنيا، بل إطاعتهم لأمره واتباعهم له، ومنها قوله تعالى : ﴿ **احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢) مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ (٢٣) وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ (٢٤) مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ (٢٥) بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ (٢٦) وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٧) قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ (٢٨) قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٢٩) وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ (٣٠)** ﴾ [الصافات :٢٢ – ٣٠].

فَيَتَّضِح بإمعان النظر في هذه المحاورة التي حكاها القرآن بين العابدين وبين ماكانوا يعبدون أن ليس المراد بالمعبودين في هذا المقام الآلهة والأصنام التي كان يتأله لها القوم، بل المراد أولئك الأئمة والدعاة الذين أضلوا الخلق متظاهرين بالنصح. ونظيره قوله تعالى: ﴿ **اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا** ﴾ [التوبة: ٣١].

والمقصود باتخاذ الأحبار والرهبان أربابًا من دون الله هو إطاعة أكابرهم بدون سند من عند الله تعالى أو الرسول، وهذا المعنى أشار إليه الرسول عليه الصلاة والسلام في تعريفه العبادة لعدي بن حاتم رضي الله عنه [١] لما قرأ أمامه الآية السابقة، فقال عدي: «إنهم لم يعبدوهم». فقال ﷺ: «**إنهم حرموا عليهم الحلال وأحلوا لهم الحرام، فاتبعوهم، فذلك عبادتهم إياهم**» .. الحديث[٢].

(٣) **وأما الموضع الثالث**: وهو أن العبادة بمعنى التأله، باتخاذ المعبود إلهًا سواء أكان حقًا أم باطلا سواءً من الجن أو الملائكة أو الإنس أو غيرهم .

كما في قوله تعالى: ﴿ **قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي** ﴾ [غافر: ٦٦] . وقوله تعالى: ﴿ **وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلاَّ أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ** ﴾ [مريم: ٤٨، ٤٩] .

فالمراد بالعبادة هنا: الدعاء والاستغاثة بغير الله تعالى وتأليه سواه كما في قوله تعالى: ﴿ **وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلاَئِكَةِ أَهَؤُلاَءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴿٤١﴾** ﴾ [سبأ: ٤٠، ٤١].

---

(١) هو: عدي بن حاتم بن عبد الله بن سعد بن الحشرج الطائي، كان على دين النصرانية، صحابي شهير، وكان ممن ثبت على الإسلام في الردة، وحضر فتوح العراق وحروب علي، مات سنة ٦٨هـ [تقريب التهذيب: ٢/١٦] .

(٢) رواه الترمذي: ك: تفسير القرآن – سورة التوبة، وصححه الألباني في صحيح الترمذي ح٢٤٧١ .

أي: أهؤلاء يا ملائكتي اتخذوكم آلهة تُعْبَدُون من غيري؟!! فأنكرت الملائكة ذلك ونزهت الله تعالى واعترفت بأن المشركين قد اتخذوا مردة الجن آلهة يعبدونهم من دون الله تعالى .

(٤) وتأتي في بعض المواضع: وتشمل المعاني الثلاثة في آن واحد من العبودية والإطاعة والتأله، وذلك في قوله تعالى: ﴿ **إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً (٩٣)** ﴾ [مريم:٩٣].

وهنا تشمل جميع الكائنات في عبوديتها لله عز وجل وإطاعتها وتوحيدها له سبحانه. وقوله تعالى: ﴿ **ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (١٠٢)** ﴾ [الأنعام:١٠٢]. وقوله تعالى: ﴿ **وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ** ﴾ [هود:١٢٣] .

مما سبق بيانه يتضح لنا أن العبادة تشمل جميع الشعائر التعبدية وتشمل جميع ماأمر الله تعالى به ونهى عنه، كما تشمل إفراد الله تعالى في أسمائه وصفاته، وإفراده سبحانه في الألوهية والربوبية.

يقول الأستاذ محمد قطب - حفظه الله تعالى - :

« إن العبادة المطلوبة من العباد هي إفراد الله بالألوهية والربوبية، الذي يشمل توحيد الله في ذاته وأسمائه وصفاته، والتوجه إليه وحده بالشعائر التعبدية، والالتزام بما أنزل الله، وعدم اتخاذ شرع من مصدر سواه سواء على سبيل المضاهاة لشرع الله كما كان يفعل التتار قبل إسلامهم من اتخاذ « الياسق » الذي يجمع أحكاماً من القرآن وأحكاما من مصادر أخرى، أو على سبيل التشريع المطلق، أي تنحية شرع الله جملةً واتخاذ شرع غيره .

هذه العبادة على هذه الصورة هي التي تُخرِجُ النَّاس من الشرك وتجعلهم مسلمين وهذا هو الإخلاص في حده الأدنى، الذي لا يقبل الله من الناس أقل

منه، ولا تقوم بغيره حقيقة الإسلام في داخل النفوس ولا في واقع الحياة.

أما الدرجات العليا فمرهونة بمقدار الطاعات التي يتقدم بها العباد إلى الله ومقدار الحرص على الالتزام بما أقر به القلب واللسان. أما الاعتقاد بأن هناك شركاء لله في الخلق أو التدبير أو الرزق أو الإحياء أو الإماتة أو النفع أو الضر... إلخ، أو التوجه لغير الله بالشعائر التعبدية، أو التشريع بغير ما أنزل الله، أو الرضا بغير ما أنزل الله، فهو الشرك الذي يخرج الناس من الإسلام»[1] اهـ.

(١) واقعنا المعاصر لمحمد قطب: ص٣٦.

obeikandl.com

العبودية ومكانتها

العبودية هي الغاية المطلوبة من الخلق لله عز وجل والتي خلقهم من أجلها كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ (٥٧) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (٥٨)﴾

[الذاريات: ٥٦ ـ ٥٨].

وقد ذكر القرطبي(١) رحمه الله تعالى في تفسيره لهذه الآية أن قوله تعالى: ﴿لِيَعْبُدُونِ﴾ أي ليذلُّوا ويخضعوا لي (٢).

وقيل: إنما خلقتهم لآمرهم بعبادتي لا لاحتياجي إليهم.

وقيل: إلا ليقروا بعبادتي طوعًا أو كرهًا (٣).

وجاء في تيسير الكريم الرحمن ما نصه:

«هذه الغاية التي خلق الله الجن والأنس لها وبعث جميع الرسل يدعون إليها، وهي عبادته المتضمنة لمعرفته ومحبته والإنابة إليه والإقبال عليه والإعراض عما سواه، وكلما ازداد العبد معرفة بربه كانت عبادته أكمل فهذا الذي خلق الله تعالى المكلَّفين لأجله، فما خلقهم لحاجة منه إليهم»(٤). اهـ.

---

(١) هو: محمد بن أحمد بن فرح الخزرجي المالكي أبو عبد الله القرطبي، كان صالحًا زاهدًا ورعًا. من تصانيفه: تفسيره جامع الأحكام، والتذكار في أفضل الأذكار، توفى سنة ٦٧٨هـ [طبقات المفسرين للداودي: ٢/ ٦٥]، [طبقات المفسرين للسيوطي: ص٢٨].

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ١٧/ ٥٦، وذكره الشوكاني في فتح القدير: ٥/ ٩٢.

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير: ٤/ ٢٣٨.

(٤) تفسير الكريم الرحمن لعبد الرحمن بن ناصر السعدي: ٧/ ١٨١.

فالعبودية: هي التي من أجلها أرسل الله تعالى الرسلَ لدعوة الناس إليها فقام كل واحد منهم[١] بدعوة قومه إلى عبادته سبحانه قائلاً لهم : ﴿ **اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ** ﴾ [الأعراف :٥٩] .

فكانت هي الغاية من دعوة الرسل جميعًا إلى أقوامهم، كما قال تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ** [٢] ﴾ [النحل :٣٦]. وقال تعالى : ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ (٢٥)** ﴾ [الأنبياء :٢٥]. وقال تعالى : ﴿ **إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ (٩٢)** ﴾ [الأنبياء :٩٢].

وهي أول ما أمر الله تعالى به رسله أن يقوموا بها ويحققوها في أنفسهم، وأول مايأمرون بها أقوامهم ، والآيات القرآنية الدالة على هذا المعنى كثيرة .

فهذا موسى عليه السلام كان أول ما أوحى الله تعالى به إليه قوله تعالى : ﴿ **إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي (١٤)** ﴾ [طه :١٤].

وهى أول ما نطق به عيسى عليه السلام أمام قومه من بني إسرائيل وكان وحيًا إليه وهو في المهد فقال تعالى مخبرا عنه : ﴿ **وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ (٣٦)** ﴾ [مريم :٣٦].

كما كانت دعوته كذلك حين أُرسِلَ إليهم، فقال تعالى : ﴿ **وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ** ﴾ [المائدة :٧٢] .

وكانت شهادة عيسى عليه السلام يوم القيامة ليظهر براءته مما افتراه عليه قومه في قوله تعالى اخبارًا عنه : ﴿ **مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ** ﴾ [المائدة :١١٧].

---

(١) سيأتي إن شاء الله تعالى بيان ذلك في المبحث الثاني من الفصل الثاني والخاص بالأنبياء وتحققهم العبودية لله تعالى.

(٢) الطاغوت: كل ما عُبِدَ من دون الله تعالى من إنس أو جن أو ملائكة أو صنم .

أي أن العبودية هي الأمر الذي أوجبه الله تعالى على خلقه . وذِكْرُ الأمر في « أمرتني » مع فعل الأمر في « اعبدوا » يفيد تأكيد هذه الغاية التي يحبها الله تعالى ويأمر بها . ولكن قوم عيسى عليه السلام بعدوا عن هذه الغاية التي من أجلها خُلِقُوا وإليها دُعوا وأُمروا، فافتروا على نبيهم بقولهم إنه الله أو ابن الله – فكفروا بذلك – تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً .

يقول الله تعالى : ﴿ **وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٣٠) اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا لاَّ إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣١)** ﴾ [التوبة : ٣٠، ٣١] .

يقول الفخر الرازي ـ رحمه الله تعالى ـ في بيان كفر النصارى:

« لو تأملنا لعلمنا أن كفر عابد الوثن أخف من كفر النصارى لأن عابد الوثن لا يقول إن هذا الوثن خالق العالم وإله العالم، بل يجريه مجرى الشيء الذي يتوسل إليه به إلى طاعة الله، أما النصارى فإنهم يثبتون الحلول والاتحاد وذلك كفر قبيح جدا »(١) اهـ .

وهذا المعنى العظيم والمقصود وهو عبادة الله تعالى وحده لاشريك له وعدم عبادة غيره كائنا من كان، ولو كان نبيا مرسلاً أو ملكًا مقربًا قد أبرزه أبو بكر الصديق(٢) رضي الله عنه وأعلنه حين قطع به حيرة الشاكين في موت النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال : « أما بعد . . فمن كان منكم يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حيٌّ لا يموت، قال الله تعالى : ﴿ **وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ**

---

(١) التفسير الكبير للفخر الرازي: ١٦ / ٣٢ .

(٢) هو: عبد الله بن عثمان بن عامر التميمي القرشي، خليفة رسول الله ﷺ، أول من أسلم من الرجال، وشهد المشاهد كلها ، وحمل الراية في غزوة تبوك، وحج بالناس في حياة الرسول عليه الصلاة والسلام وصلى بهم في مرضه عليه الصلاة والسلام الأخير، وكان أحب الناس إليه عليه الصلاة والسلام، كنيته أبو بكر، توفى سنة ١٣هـ. [الإصابة: ٢ / ٣٤١، ٣٤٤] ، [تذكرة الحفاظ: ١ / ٢].

خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ ﴾ [آل عمران: ١٤٤](١).

وكما أمر عيسى عليه السلام بالعبودية فقد أمر بها محمداً عليه الصلاة والسلام فقال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ ﴾ [الرعد: ٣٦]. وقال: ﴿ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ (١١) ﴾ [الزمر: ١١].

وأمره الله تعالى بأن يلازم هذه العبودية إلى موته عليه الصلاة والسلام. فقال تعالى: ﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ (٩٩) ﴾ [الحجر: ٩٩](٢).

وهي الكلمة التي أمر الله تعالى نبيه محمداً عليه الصلاة والسلام أن يجمع أهل الكتاب عليها ويدعوهم إليها. فقال تعالى: ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ(٦٤) ﴾ [آل عمران: ٦٤].

وقد أخبر سبحانه وتعالى عن الأمم السابقة وأمره لها بعبوديته تعالى. فقال عز من قائل: ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ (٥) ﴾ [البينة: ٥].

وأخبر سبحانه وتعالى أنها (العبودية) الميثاق الذي أخذه على بني إسرائيل بقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ ﴾ [البقرة: ٨٣].

---

(١) البخاري: ٣/ ١٣٤١ - ٤/ ١٦١٨ - ك: الجنائز - ب: الدخول على الميت بعد الموت.

(٢) تعليق: واليقين في الآية هو الموت بإجماع أهل التفسير، ويدل عليه قوله تعالى في سورة المدثر حكاية عن أهل النار: ﴿ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ (٤٦) حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ (٤٧) ﴾ وليس كما يزعم الصوفية أنه الحقيقة الكونية فيكون المرء بعد الوصول إليها وليًا عارفًا تسقط عنه التكاليف الشرعية. فيلزمهم على قولهم الضال أن يكون الكفار أيضا قد وصلوا إلى الحقيقة الكونية ليس في الدنيا بل وهم في النار يعترفون بها !! كما يلزمهم أيضا على قولهم الفاسد أنه ﷺ توفى ولم يصل إلى الحقيقة لأن الثابت عنه عليه الصلاة والسلام أنه مات ولم يترك العبادة قط !! . يراجع: [تفسير القرآن العظيم لابن كثير: ٢/ ٥٦٠] ، [أضواء البيان للشنقيطي: ٣/ ١٨٧، ١٨٨] .

كما أخبر تعالى أنها كانت وصية الأنبياء عليهم السلام لأبنائهم، فوصى بها يعقوب عليه السلام أبناءه قبل وفاته . قال تعالى : ﴿ **أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٣)** ﴾ [البقرة : ١٣٣] .

وبين سبحانه أن العبودية هي المطلب الأول من عباده المؤمنين بعد استخلافهم في الأرض وتمكين الله تعالى لهم. فقال تعالى : ﴿ **وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٥٥)** ﴾ [النور : ٥٥] .

والعبودية: هي العهد والميثاق الذي أخذه الله تعالى على آدم عليه السلام وذريته بالعبادة له وأشهدهم على أنفسهم بأنه سبحانه ربهم، والمستحق للعبادة دون غيره فأقروا وشهدوا . قال تعالى : ﴿ **وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ (١٧٢)** ﴾ [الأعراف : ١٧٢] وقوله تعالى : ﴿ **أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٦٠) وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ (٦١)** ﴾ [يس : ٦٠ ، ٦١] . فالعهد هو اجتناب عبادة الشيطان وتحقيق عبودية الله تعالى وحده.

وهي الصراط المستقيم الذي ذكره الله تعالى في قوله : ﴿ **اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦)** ﴾ [الفاتحة : ٦] . وهي جلية في قوله تعالى مخبراً عن قول عيسى عليه السلام : ﴿ **وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ (٣٦)** ﴾ [مريم : ٣٦] . وقوله تعالى : ﴿ **وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ (٦١)** ﴾ [يس : ٦٠] .

وأخبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنها حق الله تعالى على العباد في الحديث الصحيح بقوله : « **حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا** »[١] .

---

(١) متفق عليه : بخاري : ٣/١٠٤٣ – ك : اللباس ـ ب : إرداف الرجل خلف الرجل ، مسلم : ١/٥٨ .

obeikandl.com

ومن أجلها قاتل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الكفار لتكون هي العليا. فقال: «**أُمِرْتُ أن أُقاتلَ النَّاسَ حتَّى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله**»(١).

وفي المسند عن ابنِ عمر(٢) رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «**بُعِثْتُ بالسيف بين يدي الساعة، حتى يُعبد الله وحده لا شريك له**»(٣). كما أمر صلى الله عليه وآله وسلم عليًّا رضي الله عنه أن يقاتل من أجلها لما أعطاه الراية. فجاء في الحديث وفيه: « .. فسار عليّ شيئًا ثم وقف ولم يلتفت فصرخ: يا رسول الله .. على ماذا أقاتل النَّاس؟. قال: «**قاتلهم حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فإن فعلوا ذلك فقد منعوا منك دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله**»(٤).

وهي ما قضى الله تعالى به لعباده قضاء شرعيًا(٥). فقال تعالى: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ﴾ [الإسراء:٢٣].

---

(١) متفق عليه: بخاري: ١/١٥٣، مسلم: ١/٥٢، ك: الإيمان ـ ب: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله».

(٢) هو العالم الزاهد المتتبع أثر النبي صلى الله عليه وآله وسلم، أبو عبد الرحمن عبد الله بن عمر بن الخطاب، ولد سنة ٣ من البعثة المحمدية، عرض نفسه على النبي ﷺ يوم بدر فرده لصغر سنه وكذلك في أحد، وأجاز له في غزوة الخندق، اشتهر بشدة حبه لآثار النبي عليه الصلاة والسلام وقد مدحه الرسول عليه الصلاة والسلام وأثنى عليه ووصفه بالصلاح، توفي عام ٧٤هـ [تقريب التهذيب: ١/١٧١]، [تذكرة الحفاظ: ١/٣٧].

(٣) مسند أحمد: ٢/٥٠.

(٤) مسلم: ١/٥٢ – ك: فضائل الصحابة ـ ب: فضائل علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه.

(٥) بخلاف القضاء الكوني الذي لا يتخلف، كقضائه سبحانه بخلق سبع سماوات في قوله تعالى: ﴿ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ ﴾ [فصلت:١٢] فهذا قضاء كوني حتمي فالله تعالى قدره وقضاه وإن لم يأمر به ولا يحبه ولا يثيب صاحبه، وأما القضاء الشرعي فهو يتخلف بمعنى أنه يوجد، ولكن يوجد نقيضه فالله عز وجل قضى بعبادته لا بعبادة غيره ولكن وجد من يعبد غير الله تعالى من الجن والملائكة والأصنام وغيرها، لكن لو قلنا إن عبادة الله قضاء كوني فهذا يقتضي أن كل من عبد صنما أو وثنا أو غيره يكون عابدا لله تعالى حقيقة، وهذا القول لا يقول به عاقل، وإن كان قد قالته طائفة

وهي أول الواجبات على العبد وليس كما تقول المعتزلة[١] وأهل الأهواء[٢].

جاء في شرح الطحاوية ما نصه:

« ولهذا كان الصحيح أن أول واجب على المكلف شهادة أن لا إله إلا الله، لا النظر ولا القصد إلى النظر ولا الشك كما هي أقوال أرباب الكلام المذموم، بل أئمة السلف كلهم متفقون على أن أول ما يؤمر به العبد الشهادتان »[٣] اهـ .

وهي أول ما أمر به رسول الله ﷺ معاذ بن جبل [٤] رضي الله عنه أن يدعو إليها أهل اليمن فقال له: «**إنك تأتي قومًا أهل كتاب فليكن أول ماتدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله**» [٥].

= ضالة من المبتدعة كابن عربي وغيره، ممن ذكرهم شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ في هذه المسألة في الفتاوى: ٢ / ١٢١ . كما ذكر القضاء الكوني والشرعي في الفتاوى: ١١ / ٢٦٥ . ولمزيد من الإيضاح يراجع: [شفاء العليل لابن القيم: ص٢٨٠] ، [شرح العقيدة الطحاوية: ص١١٤] . وكذا صفة الإرادة فهي قسمان أيضًا: كونية كما في قوله تعالى: ﴿ **إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ** ﴿٨٢﴾ ﴾ [يس: ٨٢] ، وشرعية كما في قوله تعالى: ﴿ **وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ** ﴿١٠٨﴾ ﴾ [آل عمران: ١٠٨].

(١) المعتزلة: هم فرقة من المبتدعة، سموا بهذا الاسم لاعتزالهم ما قالته الأمة، افترقوا إلى عشرين فرقة، كل تكفر غيرها من فرقهم. يقولون جميعهم بخلق القرآن وبنفي رؤية المؤمنين ربهم جلا وعلا في الآخرة وينفون الشفاعة، ويقولون إن مرتكب الكبيرة ليس بمؤمن ولا بكافر ولكنه بين المنزلتين، كما فرقوا بين الذات والصفات وأنه سبحانه لايخلق الشر. لمعرفة مزيد من التفاصيل من آرائهم يراجع: [مقالات الإسلاميين: ١٥٥ – الفرق بين الفرق: ٢٠، ٢٤، ١١٤]، [الملل والنحل للشهرستاني: ١ / ٤٣] ، [نشأة الفكر الفلسفي للدكتور على سامي النشار: ١ / ٣٧٣] .

(٢) تراجع مذكرة العقيدة التي تدرس على طلبة السنة المنهجية بقسم العقيدة – جامعة أم القرى – عام ١٤٠٥هـ : ص١٠– ٣٤ .

(٣) شرح العقيدة الطحاوية: ص٧٥ .

(٤) هو: معاذ بن جبل بن عمر بن أوس الأنصاري الخزرجي. صحابي جليل، أعلم الأمة بالحلال والحرام، وأحد الستة الذين جمعوا القرآن في عهد النبي ﷺ ، بُعِثَ قاضيا ومرشدًا لأهل اليمن، عالمًا بالأحكام والقرآن، شهد بدرًا وما بعدها. توفي سنة ١٨هـ .

(٥) بخاري: ك: الزكاة ـ ب: لا تؤخذ كرائم أموال الناس في الصدقة .

أي اختصاصه سبحانه وتعالى بالعبادة، ولنلحظ أن أهل اليمن الذين أرسل إليهم معاذ من أهل الكتاب الذين يؤمنون بوجود الله تعالى ولكن لايؤمنون بعبوديته واستحقاقه للعبادة دون سواه .

وكما أن عبودية الله تعالى، أول الواجبات على العباد فإن عبادة غير الله تعالى من أعظم المحرمات التي حرمها الله تعالى على عباده بقوله عز وجل: ﴿ **قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا** ﴾ [الأنعام: ١٥١].

والآية فيها تحريم جازم لعبادة غير الله تعالى فهو سبحانه الخالق الرازق الذي أسبغ على المخلوقات كلها نعمًا لا تُحْصَى ولا تُعَدُّ ﴿ **وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا** ﴾ [إبراهيم: ٣٤]. فاستحق سبحانه أن يُعبد وحده ولا يُشرك به؛ ولهذا قال: ﴿ **فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ** ﴾ البقرة: ٢٢] .

وفي الصحيحين عن ابن مسعود[١] رضي الله عنه قال : قلت : يارسول الله .. أي الذنب أعظم عند الله؟ قال: «**أن تجعل لله نداً وهو خلقك**»[٢] . فالشرك بالله تعالى هو أعظم المحرمات التي حرمها الله عز وجل على عباده. لذا حَثَّ رسول الله ﷺ على اتقاء الحرمات وأعظمها هو الشرك بالله تعالى .

فعن أبي هريرة[٣] رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «**اتَّقِ المحارمَ تكن أعبدَ النَّاس**»[٤] .

---

(١) هو: عبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب الهذلي، أبو عبد الرحمن، من السابقين الأولين، ومن كبار الصحابة فضلا وعلمًا وقربًا من رسول الله ﷺ ، أول من جهر بقراءة القرآن بمكة المكرمة، توفى سنة ٣٢ هـ [تقريب التهذيب: ١٤/ ٥٠]، [الأعلام: ٤/ ١٣٧] .

(٢) متفق عليه: بخاري: ٤/ ١٦٢٦ – ك: تفسير القرآن ـ سورة البقرة ، ومسلم: ١/ ٩٠ ك : الإيمان ـ ب: أي الذنب أكبر .

(٣) هو: عبد الرحمن بن صخر الدوسي، الصحابي الجليل، صاحب رسول الله ﷺ ولزمه وواظب عليه رغبة فى العلم وكان من أحفظ الصحابة، قدم المدينة سنة ٧هـ، وأسلم وشهد خيبر، توفي سنة ٥٧هـ [تقريب التهذيب: ٢/ ٤٨٤]، [الإصابة: ٤/ ٢٠٢] .

(٤) رواه الترمذي: ٤/ ٥٥١ – ك: الزهد ، وصححه الألباني في صحيح الترمذي: ح ١٨٧٦ .

واعلم – رحمني الله تعالى وإياك – أن تحقيق العباد لعبوديتهم الحقة تجاه خالقهم لا ينتفع الله عز وجل منها بشيء، كما لا تضره معصيتهم وبعدهم عن العبودية؛ إذ هو الغني سبحانه، والعباد مفتقرون إليه .

وقد قيل في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ (٥٦) ﴾ [الذاريات: ٥٦] : إنما خلقتهم لآمرهم بعبادتي لا لاحتياجي إليهم(١) .

فالله عز وجل لا تنفعه طاعة العباد ولو كانوا كلهم طائعين، ولا تضره معصيتهم ولو كانوا كلهم مذنبين . فعن أبى ذر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى أنه قال : « **.. يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني . يا عبادي لو أن أوَّلَكُم وآخرَكم، وإنسَكم وجنَّكُم، كانوا على أتقى قلب رجلٍ واحدٍ منكم، ما زاد ذلك في مُلكي شيئًا، يا عبادي لو أن أوَّلكم وآخرَكم، وإنسَكُم وجنَّكُم كانوا على أفْجر قلب رجل واحد منكم، مانقص ذلك من مُلكي شيئا، يا عبادي لو أن أوَّلكم وآخرَكم وإنسَكُم وجنَّكم، قاموا في صعيدٍ واحد، فسألوني، فأعطيتُ كلَّ إنسان مسألته، ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر . يا عبادي إنما هي أعمالكم أُحصيها لكم ثم أوفيكم إياها . فمن وجدها خيراً فليحْمَدِ اللهَ عزّ وجلّ، ومن وجد غير ذلك فلا يَلومَنَّ إلا نفسَه** » (٢) .

ومع ذلك ـ فهو سبحانه يحب أهل الطاعة من عباده ويحب التزامهم بالعبودية الحقة، ويباهي بهم ملائكته الكرام(٣)، كما أنه سبحانه لا يرضى لهم الكفر . . ﴿ **وَلا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ** ﴾ [الزمر: ٧]، ويحب التوابين منهم ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ** (٢٢٢) ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، ويفرح سبحانه لتوبة المسيء منهم . . لقوله عليه الصلاة والسلام : «**لله أَفْرَحُ بتوبة عبده من أحدكم**

---

(١) تقدم تفسير هذه الآية .

(٢) مسلم: ٤ / ١٩٩٤ – ك: الظلم ـ ب: فى تحريم الظلم والأمر بالاستغفار والتوبة .

(٣) سيأتي بمشيئة الله تعالى توضيح لذلك .

سقطَ على بعيره وقد أضلهُ في أرض فلاة» (١). ويستحي عزَّ وجلَّ أن يردَّ دعاء من توجه إليه بإخلاص وذلك لحديث سلمان الفارسي رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «**إن الله حَيِيٌّ كريم، يستحي إذا رفع الرجلُ يديه أن يردها خائبتين**»(٢). كما يحب المتقين من عباده والمحسنين والصابرين ﴿**إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ** ﴿٤﴾﴾ [التوبة: ٤]. ﴿**وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ**﴾ [آل عمران: ١٣٤]. ﴿**وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ**﴾ [آل عمران: ١٤٦].

وهذه المحبة متبادلة (٣) بين الرب سبحانه وبين عباده المؤمنين فالعباد يحبون ربهم جل وعلا، من خلال طاعتهم له واتباعهم أوامره سبحانه واجتنابهم نواهيه على ألسنة رسله لقوله تعالى: ﴿**قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾**﴾ [آل عمران: ٣١]. وقد بين الله عز وجل محبة العباد له في قوله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ**﴾ [البقرة: ١٦٥].

وأما عن المحبة المتبادلة بين الله عز وجل وعباده ففي قوله تعالى: ﴿**فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ**﴾ [المائدة: ٥٤].

لاشك أن الذي يعفو ويصفح ويفرح لتوبة عبده ويريد الخير بعباده المؤمنين، هو من يحب، وهو الله سبحانه وتعالى؛ لذا تظهر صفة المحبة التي هي من صفات الكمال الواجبة في حق الله تعالى فهو سبحانه أرحم بالعباد من الأم بولدها كما قال ﷺ: «**الله أرحم بعباده من هذه المرأة بولدها**» (٤).

يقول الإمام ابن تيمية - رحمه الله تعالى -: «قد أجمع سلف الأمة وأئمتها على إثبات محبة الله تعالى لعباده المؤمنين ومحبتهم له»(٥).

---

(١) متفق عليه: البخاري ١١/ ٦٣٠٩ – ك: الدعوات ـ ب: التوبة، مسلم: ٤/ ٢١٠٣، ٢١٠٤ – ك: التوبة ـ ب: الحض على التوبة، واللّفظ للبخاري.

(٢) رواه الترمذي: ك: الدعوات ـ ب: ١١٨، وصححه الألباني في صحيح الترمذي ح٢٨١٩.

(٣) خلافا لما أنكرته الجهمية من حقيقة المحبة من الجانبين فأنكروا بذلك أن يكون إبراهيم عليه السلام خليلاً لله تعالى. [شرح العقيدة الطحاوية: ٣٢٨].

(٤) متفق عليه: البخاري: ١٠/ ٥٩٩٩ – ك: الأدب ـ ب: رحمة الولد وتقبيله ومعانقته، مسلم: ٤/ ٢١٠٩ – ك: التوبة ـ ب: الله أرحم بعباده من الوالدة بولدها.

(٥) مجموع الفتاوى: ٢/ ٣٥٤.

أنواع العبودية

قَسَّمَ كثير من أهل العلم العبودية إلى قسمين: عام وخاص.

وجعلوا العبودية العامة هي عبودية القهر والتسخير لنفاذ أمر الله تعالى في كل شيء فلا يقدر كائن أن يمتنع عن شيء جبله الله تعالى عليه. وبهذا المعنى العام يشمل جميع الكائنات، ويشير إليه قوله تعالى: ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ [آل عمران : ٨٣].

وأما العبودية الخاصة: فجعلوها عبودية طاعة واختيار، وخصوا بها الإنس والجن دون غيرهم من الكائنات كلها – على خلاف في الملائكة – ومن ثم جعلوا عبودية الكائنات الجمادية والحيوانية والنباتية عبودية قهر وتسخير، ولم يثبتوا لها طاعة أو اختيار. ونحن في بحثنا هذا سوف نُبَيِّن بمشيئة الله تعالى أن لهذه الكائنات اختياراً وطاعات تقوم بها تجاه ربها[١]. وأنها ليست مقهورة بالكلية؛ ونظرا لأن معظم من كتب في أنواع العبودية كان يعنى بصفة خاصة عبودية الإنس والجن، فإنهم لم يتعرضوا لعبودية الكائنات الأخرى .

فابن تيمية – رحمه الله تعالى – تكلم عن نوعي العبودية فقال :

« إن العبدَ يُراد به المعبَّد الذي عبَّده الله فذلّلهُ ودَبّره وصرَّفَه، وبهذا الإعتبار فالمخلوقون كلهم عبادُ الله الأبرارُ منهم والفجَّارُ، والمؤمنون والكفار، وأهلُ الجنة وأهلُ النار، إذ هو ربُّهم كلهم ومليكُهم لا يخرجون عن مشيئته وقدرته، وكلماتِه التَّامَّات التي لا يجاوزهن بَرٌّ ولا فاجر، فما شاء كان وإن لم يشاءوا، وما

(١) سيأتي الكلام عن عبودية هذه الكائنات فى القسم الثاني من الفصل الثاني بمشيئة الله تعالى .

شاءوا إن لم يشأه لم يكن، كما قال تعالى : ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (٨٣) ﴾ [آل عمران : ٨٣] .

ثم قال : « المعنى الثاني من معنى العبد، وهو العبد بمعنى العابد فيكون عابداً لله لا يعبد إلا إياه فيطيع أوامره وأمر رسله ويوالي المؤمنين المتقين ويعادي أعداءه الكافرين والفاسقين، وهذه العبادة متعلقة بالوهيته، ولهذا كان عنوان التوحيد (لا إله إلا الله) بخلاف من يقر بربوبيته ولا يعبده أو يعبد معه إلهًا آخر. وهذه العبادة هي التي يحبها الله ويرضاها وبها وَصَفَ المصْطَفَين من عباده وبها بَعَثَ رُسُلَهُ، وأمَّا العبدُ بمعنى المعبد سواء أقر بذلك أو أنكره فذلك المعنى يشترك فيه المؤمن والكافر » (١) اهـ.

وقال ـ رحمه الله تعالى ـ في موضع آخر :

« وقوله تعالى : ﴿ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا (٦) ﴾ [الإنسان : ٦] و ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً ﴾ [الإسراء : ١]. فإن العبد تارة يعنى به المعبد فيعم الخلق، كما في قوله تعالى : ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا (٩٣) ﴾ [مريم : ٩٣]، وتارة يعنى به العابد فيخص، ثم يختلفون فمن كان أعبد علما وحالا كانت عبوديته أكمل، فكانت الإضافة في حقه أكمل مع أنها حقيقة في جميع المواضع »(٢) اهـ .

ويقول ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ : « العبودية نوعان : عامة وخاصة .

فالعبودية العامة : عبودية أهل السماوات والأرض كلهم لله، برهم وفاجرهم، مؤمنهم وكافرهم . فهذه عبودية القهر والملك . قال تعالى : ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا (٩٣) ﴾ [مريم : ٩٣] .

---

(١) العبودية / ص ١١، ١٤ .

(٢) مجموع الفتاوى لابن تيمية : ٥ / ١٠٥ .

ثم قال: وأما النوع الثاني: فعبودية الطاعة والمحبة واتباع الأوامر. قال تعالى: ﴿ يَا عِبَادِ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ (٦٨) ﴾ [الزخرف: ٦٨]، وقال تعالى: ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ (١٧) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ﴾ [الزمر: ١٧، ١٨]، وقال: ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا (٦٣) ﴾ [الفرقان: ٦٣]. فالخلق كلهم عبيد ربوبيته، وأهل طاعته وولايته هم عبيد ألوهيته»(١).

فنجد من كلامهم السابق أنهم عنوا بعبودية الإنس دون غيرهم من الكائنات الأخرى، إلا أن تقسيمهم لأنواع العبودية يشترك فيها الكائنات كلها.

فالمعنى العام وهو القهر والتسخير يشمل جميع الكائنات كلها، وأما المعنى الخاص فيشمل المؤمنين الموحدين من الكائنات كلها باتباع أوامره سبحانه وتمجيده وتقديسه عز وجل، فكل مطيع من هذه الكائنات له مع عبوديته العامة لله تعالى عبودية خاصة وكل بحسبه، أما العصاة من الكائنات الأخرى فهم محرومون من نعمة العبودية الخاصة داخلون ومقهورون تحت العبودية العامة شاءوا ذلك أم أبوا، لنفاذ أمر الله تعالى فيهم. قال تعالى: ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا (٩٣) ﴾ [مريم: ٩٣] وقال: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ ﴾ [الحج: ١٨].

فنجد أن جميع الكائنات – دون من كفر من الإنس والجن – قد عبدت ربها وأدت خضوعها الكامل بالسجود لخالقها وباريها ولم يعترض إلا هذا الكائن وهو الإنسان الذي فَصَّل الله تعالى فيه أمره، فمنهم من عبده تعالى اختياراً منه، ومنهم من عبده تعالى كرها وقهراً وذلك لنفاذ سنن ومشيئة الله تعالى فيهم وفي غيرهم من الكائنات الأخرى، فقال تعالى: ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ ﴾.

(١) مدارج السالكين: ١/١٠٥.

فالذين كفروا وجحدوا بربهم لم يخرجوا عن مشيئة خالقهم رغم كفرهم به تعالى، حتى من قال منهم : ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى (٢٤) ﴾ [النازعات: ٢٤]، وهو فرعون اللعين لم يخرج عن مشيئة الله تعالى من الاحتياج والافتقار إليه سبحانه من الأكل والشرب والنوم والموت والغرق الذي أصيب به، فكلها من لوازم العبد التي لاتنفك هي وغيرها عنه، فسنن الله الكونية والتي شاءها الله عز وجل بأن تكون في البشر وغيرهم من الكائنات الأخرى تخضع لها الكائنات كلها شاءوا أم أبوا، مثل النمو من الصغر والكبر والشيخوخة والأكل والشرب والنوم والراحة والإخراج وما يحصل في داخل الأجسام الإنسانية والحيوانية والنباتية من الهضم والتنفس وعمل القلب في تنظيم الدورة الدموية . فكل هذا وغيره كثير مما خلقه الله تعالى بحكمته، خضع له الإنسان خضوعًا كاملا . ليس له ـ مثلا ـ أن يوقف الدورة الدموية لمدة معينة أو يعمل الجهاز التنفسي في وقت دون آخر، فالكثير الذي في الآية ﴿ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ ﴾ مع كفرهم وجحودهم بالله تعالى مقهورون وخاضعون لله عز وجل كُرهًا لا اختيار لهم فيه، بل خاضعون لنفاذ أمر الله تعالى فيهم في الأمور السابقة وغيرها، وهذا المعنى العام للعبودية وهو الخضوع والقهر وهم العباد المقصودون في مثل قوله تعالى : ﴿ **إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا** (٩٣) ﴾ [مريم: ٩٣]. وكذلك في الحديث القدسي : يقول الله تعالى : «**يا عبادي إنّى حَرَّمْتُ الظلمَ على نفسي وجَعَلْتُه بينكم محرمًا فلا تظالموا**» (١).

وأما العبودية الخاصة، فأهلها خاضعون لله عز وجل فيما أمر مجتنبون لما نهى عنه باختيار منهم، فهم المستحقون دون غيرهم الإضافة التشريفية لخالقهم بكونهم عبادًا له سبحانه ، وهم غير معصومين من الوقوع في المعاصي والآثام، ولكن كلما قويت عزائمهم وزادت طاعتهم لله تعالى وابتعدوا عن الذنوب

---

(١) مسلم: ٤ / ١٩٩٤ – ك: الظلم ـ ب: فى تحريم الظلم والأمر بالاستغفار والتوبة .

ازدادوا قُربًا إليه سبحانه وارتفعوا في مراتب العبودية . وهم المعنيون في آيات كثيرة مثل قوله تعالى : ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا (٦٣) ﴾ [الفرقان : ٦٣]، وقوله تعالى : ﴿ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ ﴾ [مريم : ٦١]. وقوله : ﴿ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا (٦) ﴾ [الإنسان :٦] .

فعباد الله حقا هم الذين اتبعوا أمر ربهم واجتنبوا غواية الشياطين، فكانوا هم الخواص من عباد الله تعالى – من المعنى العام – ونالوا الجنان بعبوديتهم له سبحانه والقرب منه، والأَمْنِ من غواية الشيطان .

obeikandl.com

المبحث الثاني
مفهوم الكائنات

كلمة «كائنات» هي جمع للمفرد «كائن»، ومنها الكون وجمعه «أكوان» و«كونيات».

شاع استخدام هذه الكلمة في كثير من العلوم، الدينية منها والبحتة [١]، استخداما يتناسب مع أصحاب كل فن من هذه العلوم فيتركون بذلك المعنى المطلق العام لكلمة «الكائنات» وهو «الموجودات» ويأخذون منها معنى خاصًا يفيد علمهم ويدل عليه.

فعلماء الهيئة أو الفلكيون يعنون بها: الفضاء الواسع الذي في السماء بما فيه من أجرام سماوية وأفلاك وكواكب وشمس وقمر ونجوم وليل ونهار، وأبعاد تلك الأجرام عن بعضها البعض، وبعدها عن الأرض وما تبع ذلك.

وأما البيولوجيون - علماء الأحياء -: فيعنون بـ«الكائن» تلك الخلية الأولى التي يتكون منها الإنسان والحيوان والنبات ويسمونها بـ«الكائن الحي» أو «الأميبا».

وأما عند الفيزيقيين - علماء الطبيعية -: فيقصدون بالكون ما عدا الإنسان والحياة من بقية المكونات الأخرى الحية منها والجامدة [٢].

ونحن هنا في بحثنا هذا نورد الكلام عن الكائنات بمعنى أشمل وأعمّ، ولسنا بصدد فن معين من العلوم لتخصيص كلمة «الكون» بهذا القدر من المعنى مع ما هو معروف من أنها في الحقيقة مرادفة لكلمة «الوجود» كما سنبين إن شاء الله تعالى بعد قليل فينبغي أن تشمل كل ما أوجده الله تعالى.

---

(١) هي العلوم التي تستند إلى التجارب والمشاهدات كالكيمياء والفيزياء والرياضيات وغيرها.

(٢) كبرى اليقينيات الكونية للبوطي: ص٢٦١.

فالكون لغة: هو الحدث، من الحدوث، والكائنة: الحادثة، أي وجدت بعد العدم.

ونقول: الله مكون الأشياء: مخرجها من العدم إلى الوجود. وقيل: الكون: مصدر كان التامة، يقال: كان يكون كونًا: أي وجد واستقر(١). والاستقرار هنا بمعنى الظهور ولا يفهم منه أنه يثبت ولا يَبِيدُ فكل حادث هالك، وكما قيل: إن ماجاز عدمه استحال قدمه.

وذكر الجرجاني(٢) في «التعريفات» أن الكون: «اسم لما حدث دفعة. وقيل: الكون حصول الصورة في المادة بعد أن لم تكن حاصلة فيها»(٣).

ولكنه تعريف غير منضبط، حيث إن الصورة والمادة كائنان. ثم ذكر بعد ذلك أن الكون: عبارة عن وجود العالم من حيث هو عالم، لا من حيث إنه حق، وإن كان مرادفًا للوجود المطلق العام.

وعند النظر نجد أن الكون مرادف للوجود، وهذا مايظهر من التعريفات.

وعند الحكماء (٤): فـ«الكون» هو الوجود بعد العدم. والكائن وهو الموجود المخلوق المصنوع، مقهور وخاضع وذليل، فالكونُ خاضعٌ لمكَوِّنه وصَانعه ومُوجده فمن الكون اشتقت كلمة «استكان» أي ذل وخضع، فكل كائن استكان لمُكَوِّنه.

وقيل: كوَّن الشيء أي أحدثه وأوجده.

والكون: مصدر لكان، وهو عالم الوجود.

والكائن كالحادث. والكائنات: الموجودات(٥).

---

(١) لسان العرب لابن منظور: ١٧/ ٢٤٥.

(٢) هو: علي بن محمد على السيد الزين أبو الحسن الحنفي الشهير بالشريف الجرجاني، من أعلام الحنفية، ولد سنة ٧٤٠هـ، فيلسوف ومن كبار علماء العربية، درس فى شيراز، وله نحو خمسين مصنفًا. منها: التعريفات وشرح مواقف الإيجي، ومقاليد العلوم، وترجيح مذهب أبى حنيفة، تُوفِّي سنة ٨١٦هـ [تاريخ بغداد للخطيب البغدادي: ٣/ ٤٣٣]، [الأعلام للزركلي: ٥/ ٧].

(٣) التعريفات: ص٣٦٥.

(٤) الحكماء صنفان: الأول: الحكماء الإشراقيون ورئيسهم أفلاطون. والثاني: الحكماء المشاءون ورئيسهم أرسطو. [من كتاب التعريفات للجرجاني: ص٨٢].

(٥) دائرة معارف القرن العشرين لمحمد فريد وجدي: ٨/ ٢٤٢.

والكائنات والكوائن جمع كائن .

وجاء في كتاب « الصحاح في اللغة والعلوم »[١] : أن الكون : واحد أكوان .

والاستكانة : الخضوع، والتكوين : نشأة الشيء ونموه .

وسفر التكوين[٢] : فيه نشأة العالم .

وقيل الكون : وجود العالم .

وقيل : هو الأجرام التي يتكون منها العالم .

وقيل : هو العالم في نظامه المحكم المرتب .

والكونيات : علم الكونيات يبحث في القوانين العامة للعالم من حيث أصله وتكوينه .

مما سبق من التعريفات نجد أن لفظ « الكائنات » مرادف للموجودات وللمخلوقات . وعلى هذا فهي تشمل « كل ما سوى الله عز وجل » حيث إن الله تعالى هو الموجِد والمكَوِّن والخالق لها، فكل ما سوى الله عز وجل مخلوق ومكوَّن ومُحدَث وموجود .

أنواع الكائنات :

تنقسم الكائنات إلى أكثر من تقسيم :

التقسيم الأول : علويات وسفليات .

وجرى على هذا النحو من التقسيم بعض العلماء ومنهم القزويني[٣] رحمه الله تعالى في كتابه « عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات »، وكان يقصد بالعلويات ما يتعلق بالسماء وأبراجها والكواكب ومداراتها والشمس والقمر وما

---

(١) الصحاح فى اللغة والعلوم ـ نديم مرعشلي، وأسامة مرعشلي : ٢ / ٤٢٠ .

(٢) وهو : أول سفر من الأسفار الخمسة المنسوبة إلى موسى عليه السلام من قبل اليهود والنصارى على أنها التوراة المنزلة وهي ليست كذلك، وهي موجودة فى كتب العهد القديم كالآتي : التكوين / اللاويين / الخروج / العدد / التثنية .

(٣) القزويني : هو : العالم العربي أبو عبد الله زكريا بن محمد بن محمود القاضي، كان إماما عالما فقيها، ولد فى مدينة قزوين عام ٦٠٠هـ ، ورحل إلى دمشق وتولى القضاء بواسط والحلة فى زمن المستعصم العباسي ، توفى سنة ٦٨٢هـ [من مقدمة كتاب عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات : ص٧] .

يتصل بذلك من علم الفلك . كما أضاف غيره هنا إلى العلويات الملائكة والجنة والكرسي والعرش .

أما المخلوقات السفلية في نظر القزويني رحمه الله تعالى فهي مادون الأفلاك العلوية من النار والهواء والماء والتراب والرياح والسحاب والأرض والجبال والأشجار والبحار والأنهار والأحجار والحيوانات والإنسان والنبات والطيور .

وأما التقسيم الثاني للكائنات : فهو عالم الغيب وعالم الشهادة .

ويقصد بعالم الغيب : كل ما غاب عنك، وجمعه غياب أو غيوب[١] .

وفي قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ﴾ [البقرة:٣] بمعنى أنهم يؤمنون بالله ويؤمنون بما غاب عنهم مما أخبرهم به النبي ﷺ من أمر البعث والجنة والنار وكل ما غاب عنهم مما أنبأهم به فهو غيب، وقيل الغيب : خلاف الشهادة، وكل ماغاب عن الإنسان سواء كان محصلا في القلوب أو غير محصل فهو غيب[٢] .

الغيب في استعمال الشرع :

رُوِيَ عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : « الغيب ماغاب عن العباد من أمر الجنة وأمر النار وما ذكر الله تعالى في القرآن » .

وزاد قتادة[٣] – رحمه الله تعالى – : « آمنوا بالله وملائكته واليوم الآخر والحياة والموت »[٤] . كما قيل : إنه القضاء والقدر .

والذي اختاره القرطبي وابن كثير[٥] – رحمهما الله تعالى – من تلك

---

(١) القاموس المحيط : ٣ / ٤٣١ .

(٢) المعجم الوسيط : ٢ / ٦٧٤ .

(٣) هو : قتادة بن دعامة بن عزيز البصري، كان رأسًا فى الفقه وأيام العرب والنَّسَب مات بواسط سنة ١١٧هـ. [تذكرة الحفاظ للذهبي : ١ / ١٢٣] .

(٤) تفسير الطبري : ١ / ١٠١ .

(٥) هو : إسماعيل بن عمر بن كثير عماد الدين أبو الفداء، محدث متقن ومفسر نقاد، من تصانيفه : « تفسير القرآن العظيم » و « البداية والنهاية »، توفى سنه ٧٧٤هـ [طبقات المفسرين للداودي : ١ / ١١٠] .

الأقوال: أن هذه الأقوال كلها لا تتعارض، وأن الغيب يقع على جميعها. فكلها متقاربة وفي معنى واحد حيث إن جميع المذكورات من الغيب الذي يجب الإيمان به(١).

ومن الغيب ما هو غيب بالنسبة للإنسان ولكن قدر الله عز وجل له بالخروج إلى عالم الشهادة. كنطق الحديد (من المسجلات والتليفونات والتلفاز). وكتقارب الزمان والمكان (بالطائرات والتليفون والفاكسميلي وغيرها). فهذه الأمور التي كانت تعد غيبًا لا يتوصل إليه بالحس في السابق، صارت مما يتناوله الحس في أيامنا هذه.

هذا وقد تكون بعض الأشياء في عالم الشهادة فيقدر الله تعالى لها أن تصبح غيبًا بالنسبة لمن لم يروها كحوادث الأمم السابقة، فقد كانت مشهورة لأهل ذلك الزمان، ومع هذا فقد سماها الله تعالى غيبًا فقال تبارك وتعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا﴾ [هود: ٤٩].

وأما عالم الشهادة: فيشمل ما هو مشاهد ومحسوس في حياة المخلوقات. وهو يقابل عالم الغيب.

وقيل: «عالم الغيب والشهادة»: أي ما يغيب عن حواس الناس وبصائرهم وما يشهدونه بهما.

والشهود والشهادة: الحضور مع المشاهدة إما بالبصر أو البصيرة.

والشهادة: قول صادر عن علم حصل بمشاهدة بصر أو بصيرة(٢).

والتقسيم الذي اخترناه هو التقسيم الثاني، حيث استعمله كثير من أهل السُّنَّة لثبوته في القرآن الكريم والسُّنَّة المطهرة بالكلام عن عالم الغيب والشهادة.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ١/ ١٦٣، وتفسير القرآن العظيم: ١/ ٤١.

(٢) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز للفيروزأبادي: ٣/ ٣٥٠.